# بداية «أوسلو»

الحسن لا يذكر بتاتاً أسباب اقتناعه بأن الحكومة الأميركيّة ستتجاوب بقوّة مع مبادرة من هذا النوع، وخصوصاً أنها أدنى من السقف الذي حدّدته الحكومات المتعاقبة في الحوار مع منظمّة التحرير.

وفي رسالة لاحقة، يقول الحسن لعرفات (في «تلكس» آخر) إنه أكّد للي هاملتون (كان رئيس اللجنة الفرعيّة للشرق الأوسط في لجنة الشؤون الخارجيّة VIII في مجلس النوّاب الأميركي) أن الحرب الإسرائيليّة ـ الفلسطينيّة في لبنان «أنتجت عناصر مهمّة» (ص. 60). والغرابة أن الحسن كان مهووساً بشأن الموافقة الأميركيّة على ما تقوم به منظمة التحرير من مبادرات وسياسة. وهو يقول لياسر عرفات في رسالة إن عليه ألا يمضي في مبادرة فرنسيّة ـ مصريّة مطروحة قبل التأكّد من عدم معارضة أميركيّة لها. (ص. 63). ويتبع هذه الرسالة برسالة أخرى يقول فيها إنه لا يريد حصول فيتو على قرار المبادرة المذكورة، مع أن حصول الفيتو (وخصوصاً في زمن الحرب الباردة) يُعدّ هزيمة أميركيّة لأن تراكم الفيتوات كان يقلق الحكومة الأميركيّة في زمن كانت تعلّق فيه أهميّة على وجهات الرأي العام العربي.

واعتماد عرفات على عدد كبير من أقنية التواصل مع الإدارة الأميركيّة كان يسهّل عمليّة الخداع والتضليل اللذين كانت الحكومتان الأميركيّة والإسرائيليّة تلجآن إليهما في التواصل غير المباشر معه. وكان المحامي الفلسطيني، جواد جورج IX، يقوم بنقل رسائل من الإدارة الأميركيّة إلى عرفات. وفي واحدة من الرسائل، ينقل له عن وفد من الكونغرس الأميركي زار الشرق الأوسط أن جيش العدوّ يملك «مخططات الطوابق لكل مبنى في بيروت» وأن «عدداً من الجنود سيتولّى السيطرة على كل مبنى» (ص. 65). ويُشكّك هواري في هذا الزعم، ويمكن نفيه من أساسه. من الواضح أن العدوّ، من خلال الإدارة الأميركيّة، كان يمارس هنا حرباً نفسيّة على المقاومة الفلسطينيّة. لعل وضع المقاومة وقيادة عرفات في حصار بيروت كان يمكن أن يكون أفضل لو أنه قطع الحوار مع الإدارة الأميركيّة (ص 84) كيف يمكن أن تستمرّ قيادة منظمة التحرير في التعويل على الحكومة الأميركيّة بعد هذه التصريحات العدائيّة؟ لكن لم يكن هناك من عداء أميركي يمكن أن يثني ياسر عرفات عن المضي في التفاوض، وهذا بالضبط ما وقع فيه بعد فخّ أوسلو، عندما لم يحتفظ لنفسه بأي من عناصر القوّة في التفاوض.

كان الوقت متأخراً على عرفات ليكسب تأييداً شعبيّاً في بيروت الغربيّة كي ينوّع خياراته، لكن القيادات الإسلاميّة وحتى الشيوعيّة في بيروت الغربيّة ضغطت عليه كي يخرج، ولم يعد بإمكان القيادة التمسّك بخيار الصمود إلا بتعارض مع هذه القيادات (لكن هذا الخيار كان ممكناً بسبب تأييد ذلك من مقاتلين لبنانيّين وفلسطينيّين وسوريّين محصورين في بيروت). صائب سلام (الزعيم اللبناني الوحيد الذي جاهر بتأييد مبادرة السادات والذي كلّفه آل سعود بلعب دور العرّاب الإسلامي لبشير الجميّل) صرخ بوجه عرفات أثناء الحصار: «ماذا تريد؟ أن تتهدّم بيروت نهائيّاً ويتشرّد أهلها»؟ X. أما محسن ابراهيم، فقد نقل عنه أبو موسى قوله لياسر عرفات «اعطونا بيروت. أعطيناكم لبنان عشر سنين تسرحوا وتمرحوا وتعملوا اللي بدكم إياه. وتحمّلنا كل ردّات الفعل الإسرائيليّة (بالحرف). اعطونا بيروت. بمعنى «الله يعطيكم العافية. غادروا». XI

لم تتعلّم القيادة الفلسطينيّة الحالية من تجربة ياسر عرفات في حصار بيروت. حركة «حماس» تعيد التجربة نفسها، إذ هي تفاوض مع الدول العربيّة والغربيّة من موقف ضعيف للغاية، وتقدّم التنازلات تلو التنازلات. مستقبل الحركة يمكن قراءتُه في تاريخ «فتح». وقد تبدّدت عناصر القوّة بسبب عوامل مختلفة؛ منها التحالف المعلن بين العدوّ والدول العربيّة. لكن الخروج من النفق ممكن بإطلاق حركة مقاومة فلسطينيّة جديدة تتعلّم من تجارب أخطاء المرحلة الماضية، وتعيد النظر بأسلوب عمل وأفق ياسر عرفات (أو «حماس» حالياً).

> حركة «حماس» تعيد التجربة نفسها، إذ هي تفاوض من موقف ضعيف للغاية

> وفاوض مع جهة أخرى حول شروطه للخروج من بيروت.
> لم يكن هناك ما يمكن أن يبدّد التفاؤل المفرط الذي كانت القيادة الفلسطينيّة – بإيعاز سعودي – تعقده على الإدارة الأميركيّة. كان المسؤولون الأميركيّون في لقاءاتهم مع وفود الفلسطينيّين الأميركيّين شديدي الوضوح في التعبير عن عدائهم المطلق للمطالب المشروعة لمنظمّة التحرير الفلسطينيّة. قال لهم نيكولاس فليوتس بصريح العبارة إنه لا يمكن أن يجلس إلى طاولة المفاوضات أي من أبو عمّار أو أبو اللطف أو أبو إياد أو أبو جهاد. وزاد فليوتس أنه ليس للدولة الفلسطينيّة «شبح الفرصة» بالنسبة إلى الحكومة الأميركيّة. (ص. 81) وجاء توصيف فليوتس بعد أسابيع من تصريح لجورج شولتز (وزير الخارجيّة يومها) والذي نفى فيه إمكانيّة إقامة دولة فلسطينيّة ولو بعد عشرين سنة. وصارحهم فليوتس أيضاً بأن حق عودة اللاجئين لا يعني لأميركا إلا «التعويض» فقط. ونصحهم بإهمال شعارات «تقرير المصير» و«حق العودة». أما ديفيد ماك (دبلوماسي أميركي آخر) فقد بلغت الصفاقة به أن طلب رسميّاً من منظمة التحرير مساعدة بشير الجميّل في الحكم.

### هوامش

I) قال دبلوماسيّان أميركيّان لوفد فلسطيني إن المغرب والسعوديّة ووليد خالدي يقدّمون لعرفات صورة غير دقيقة (أي متفائلة جداً) عن موقف الحكومة الأميركيّة. ص. 93) من الكتاب المذكور لاحقاً.

II) ص 113 من كتاب هوّاري.

III) راجع محضر اللقاء في خالد عايد، «قطار الموت»، ص. 289.

IV) راجع شهادة عرفات في «شؤون فلسطينيّة»، العدد 136 - 137، وهي مدرجة في كتاب هوّاري، ص 108، 109.

V) راجع كتاب جورج فريحة، «مع بشير: ذكريات ومذكّرات»، ص.222.

VI) روى لي الراحل إدوار سعيد أن بسّام أبو شريف كان يتصل به خلال الأزمة وأن القيادة الفلسطينيّة كانت على يقين من أن سلاحاً سريّاً خطيراً كان بحوزة صدّام حسين.

VII) يتحمّل عرفات المسؤوليّة عن ضعف الأداء في الجنوب اللبناني وعن عدم التحضير المُسبق للغزو الإسرائيلي، بالرغم من كل التحذيرات التي أتته من أكثر من طرف. لكن الصمود في بيروت الغربيّة والذي رسمه بدقّة «أبو الوليد» مع رفاق له في قيادة المقاومة الفلسطينيّة) كان يمكن أن يؤدّي إلى مكاسب تبخّرت بمجرّد أن وافق عرفات على الانسحاب من دون تحقيق أي تنازل مُضاد.

VIII) تغيّر اسم اللجنة لاحقاً في مجلس النوّاب الأميركي إلى لجنة العلاقات الدوليّة.

IX) عمل رئيساً لـ«المؤتمر الفلسطيني في أميركا الشماليّة» ثم مديراً للجمعيّة الوطنيّة للعرب الأميركيين.

X) من شهادة عن الحصار لشفيق الوزّان، أسير الفريق الانعزالي يومها، والشهادة وردت في مجلّة «الوسط»، وهي منشورة في الكتاب، ص. 111.

XI) لشهادة من مقابلة مع «قناة الحوار» في الحلقة 24، وهي منشورة في الكتاب، ص. 117.

* كاتب عربي (موقعه على الإنترنت: angryarab.blogspot.com)

# المقاومة في اللانظام العالمي

**حسام مطر ***

مع ثورة المعلومات والاتصال وانفلات المنافسة في سوق الإعلام لجذب «الزبائن» بدوافع مالية وسياسية، انكمش الخط الفاصل بين البرامج السياسية وبرامج الترفيه والإثارة. فأغلب البرامج السياسية اليوم في بلادنا يمكن تصنيفها ضمن مجال «الترفيه السياسي». لذا، أصبح صخب التغطية الإعلامية يطمس الأحداث السياسية التي يدّعي كشفها، فيجري تقديم حرب أو مذبحة كأنها تغطية لحفل راقص أو مسابقة فنية، فنتأثر وننفعل ولكن يتقلص مدى وعي الحدث. مع النمط الإعلامي الحالي يصبح الانغماس الانفعالي في التفاصيل هو الأساس، حيث سرعان ما ينتقل الفرد إلى وسائط التواصل الاجتماعي لينشر ويعلق على الحدث ويدين ويشجب ويهاجم ويشتم ويحلل، فيصبح جزءاً من انفعالات القضية، لا من فهمها.

الأحداث السياسية هي نتائج وعوارض ومؤشرات في آن واحد. هي نتائج متعمدة لسياسات مدبرة، وعوارض لتفاعلات مرئية وخفية اختمرت بما فيه الكفاية، وهي مؤشر لولادة اتجاهات وتحولات جديدة. مناسبة المقدمة هي الأحداث الأخيرة في شبه الجزيرة الكورية، حيث لامس العالم، بنظر الجمهور، احتمال مواجهة نووية، بينما حضر على الشاشة ترامب وكيم والصواريخ والقنبلة النووية والحشود والعروض العسكرية، فيما كان السؤال الأهم هو الغائب الأبرز، لماذا يحصل ذلك؟ الإجابة المقتضبة والمباشرة عن دلالات الأزمات والصراعات المتزايدة حول العالم هي: إننا ندخل إلى عالم شديد الخطورة بشكل لم نعهده سابقاً، وهذه ليست إلا البداية.

لنقرأ أحد سيناريوهات المستقبل حول البيئة الدولية كما ورد في تقرير مجلس الاستخبارات الوطنية الأميركي بعنوان «الاتجاهات العالمية: معضلات التقدم» (شباط 2017)، وهو تقرير يصدر كل أربع سنوات. يعكس النص مدى السوداوية والغموض والقلق الذي يعتري مؤسسات صنع القرار حول مستقبل النظام الدولي ودور أميركا داخله. نحن الآن في العام 2032 حيث يكتب مستشار الأمن القومي للرئيس الأميركي «سميث» الذي شارفت ولايته الثانية على الانتهاء، في مذكراته ما يأتي:

«في بدايات 2020، قيّدت السياسات القطبية والأعباء المالية مشاركة الولايات المتحدة على المسرح العالمي، ما عزز التقديرات العالمية بأن الولايات المتحدة تتجه نحو فترة طويلة من الانكفاء. واعتبرت كل من الصين وروسيا وإيران، أن تلك المرحلة هي فرصة لفرض هيمنتها على الدول المجاورة الداخلة في مداراتها الاقتصادية والسياسة والأمنية الإقليمية... قرر الرئيس (الأميركي) في فترة ولايته الأولى (2024-2028) أن الولايات المتحدة لم تعد تستطيع أن تقف موقف المتفرج وتسمح لهذه التطورات بأن تستمر بلا هوادة، فانتقل إلى حشد التحالفات وتفعيل القوات العسكرية الأميركية لحماية المعايير الدولية مثل حرية الملاحة البحرية. أدت استعدادات كل من إيران وروسيا والصين لخوض صراع تقليدي إلى تكثيف التصورات العالمية حول وجود منافسة أمنية بين هذه الدول والولايات المتحدة وحلفائها. وما لم نتوقعه حينها أن الضغوط الداخلية على الأنظمة السياسية نتيجة المطالب الاجتماعية والاقتصادية في روسيا والصين وإيران جعلتها أقل رغبة في التنازل والمساومة مع أميركا... ونتيجة هذه الفوضى وقعت مواجهة نووية موضعية بين الهند وباكستان».

كثُرت في السنوات الأخيرة الكتابات الأكاديمية عن تعاظم اللايقين، والغموض، والمفاجآت، والتعقيد في النظام الدولي والعلاقات الدولية، وهي خصائص عالجها الكاتب نسيم طالب في كتابه الشهير «البجعة السوداء». ترجع هذه الخصائص إلى جملة من الظروف والمتغيرات والتحولات مثل تفكك هرميات القوة وتفتتها، الأفول الأميركي، انتشار الإرهاب، صعود اللاعبين اللا-دولتيين، عودة سباق التسلح وبناء الجيوش، تباطؤ الاقتصاد العالمي، ظهور الأقطاب الإقليمية، النضوب في الموارد والثروات الطبيعية، الكوارث البيئية، انتشار الأوبئة، صعود دول شرق آسيا، اهتزاز مشروعية القواعد الدولية، تقلص فاعلية المؤسسات الدولية الحالية، ضمور الطبقة الوسطى في الغرب، تعاظم معضلة العدالة الاجتماعية، تراجع الثقة بالعولمة، صعود الهويات، صعوبة ممارسة الحكم في ظل ارتفاع توقعات الجماهير بالرفاه، الثورة التكنولوجية والانفجار المعلوماتي، تراجع سيادة الدولة الوطنية وفعاليتها، وتراجع الإيمان بالديموقراطية ودورها.

العالم إذاً يمر بمرحلة انتقالية، من نظام ما بعد الحرب العالمية الثانية أو ما بعد الحرب الباردة (بحسب اختلاف المقاربات)، إلى نظام دولي جديد، والميزة المركزية للمرحلة الانتقالية هي «اللانظام» أو «الفوضى». في عام 2015 أطلقت مؤسسة بروكينغز مشروعاً بحثياً بعنوان «النظام من الفوضى» بهدف التعرف إلى التحديات التي تعصف بالنظام الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة وثم النقاش في السياسات اللازمة لتكييف ذلك النظام مع حقائق القرن الحادي والعشرين والدفاع عنه. المشروع ينطلق من مقدمة أن نظام ما بعد نهاية الحرب الباردة انتهى، حيث عادت الصراعات الجيوبولتيكية لتصعد بشكل واضح كدليل أن العالم يمر بطور انتقالي.

في كتابه الأخير، «النظام العالمي» (2015) يحاجج كيسينجر أن العالم يكون في أقصى درجات خطورته عندما يكون النظام الدولي ينتقل من نسق إلى آخر، «تختفي القيود ويُفتح المجال لأكثر الادعاءات كلفة ولأكثر الفاعلين عناداً»... ثم تلي ذلك الفوضى إلى حين قيام نسق جديد من النظام. بدوره يؤكد روبرت كاغان (2013) هواجس كيسينجر، إذ إن «التاريخ لا يقدم سبباً للتفاؤل، فالنظام الدولي نادراً ما يتغير عبر وسائل التحولات الملساء، بل عادة ما يكون هكذا تغير كنتيجة لاضطرابات مُحفِزة». مع الإشارة إلى أن هذه «الهواجس» رغم صحتها إلى حد بعيد، هي جزء من التنظير الأميركي لحفظ الوضع الدولي القائم عبر التهويل من آثار تحدي واشنطن وإسقاط نظامها العالمي.

نحن نختبر العالم بشكل لم نعهده في العقود الأخيرة، لدى البشرية كل الأسباب الكافية للتشاؤم والقلق، بل والهلع. في حقبة كهذه، التحسب للسيناريوهات الأسوأ هو الأصل، وسرعة الاستجابة للتحديات والمخاطر بمرونة وجرأة ضروري، وامتلاك موارد قوة ذاتية ومتنوعة أمر لا غنى عنه، والإحساس بحركة التاريخ وقوانينه وفهم الاتجاهات أفضلية وازنة، وإنتاج أفكار جريئة وإبداعية ميزة حاسمة، وقبل كل ذلك وبعده التواضع في التحليل والاستشراف.

في كتابه «التعقيد في السياسة الدولية» (2006) يشير نيل هاريسون إلى أننا لا نزال نعلم القليل عن العلاقات الدولية لدرجة أن الأحداث ما زالت تفاجئنا، وذلك لأن السياسة الدولية أكثر تعقيداً مما تقدمه لنا أغلب النظريات التي تفضل مقاربة العالم الاجتماعي أو الدولة باعتبارها نظماً بسيطة مغلقة من السهل عزلها مخبرياً وفحصها واستخلاص قوانين بشأنها. بينما في الواقع، تقوم السياسة الدولية على مبدأ الأنساق المعقدة والمفتوحة على تأثيرات داخلية وخارجية وعلى تغيرات وانبعاثات نوعية. ولذا السياسة الدولية اليوم وأكثر من أي وقت مضى «هي بدرجة ما نسق معقد ذاتي التنظيم حيث تنبثق الخصائص الكلية من التفاعلات المجهرية». وفي هذه الأنساق المفتوحة يمكن أن تكون المخرجات (أحداث أو أزمات سياسية مثلاً) نتيجة لعدة أسباب مختلفة، بل ويمكن لذات السبب أن يؤدي إلى نتائج مختلفة. وعليه، تكون الميزة الجوهرية للأنساق المفتوحة هي أنها غير قابلة للتوقع.

ولكن بالتوازي تقدم هذه المرحلة الفوضوية ذات المخاطر العالية فرصة ذهبية للقوى الصاعدة للمساهمة في تشكيل العالم الجديد ونظامه، وإمكانية للخروج من الهامش والمشاركة في رسم المستقبل. هنا يبرز دور القوى الشعبية الملتزمة مصالح شعوبها كضرورة في ظل «أشباه الدول» كمصدر رئيسي للاستقرار والأمان، ولا سيما متى اختزنت ثقافة تقوم على الاستقلال والشراكة والتنوع والمسؤولية الأخلاقية تجاه الخير العام.

الدولة والسيادة هي مفاهيم يعاد إنتاجها وبناؤها اجتماعياً طوال التاريخ وتكييفها مع متطلبات الشعوب ومصالحها. لذا، إن ابتكار وتكريس توليفة فريدة بين جيوش وطنية وقوى شعبية بعد التجارب الناجحة الأخيرة في سوريا والعراق ولبنان، بات قضية ملحة. البعض لا يجد ضيراً في أن تستباح سيادة البلاد من قوى مالية واقتصادية معولمة تنهب خيراتها وتصادر قرارها باعتبار أن ذلك من مقتضيات تحولات النظام الدولي، فلمَ لا تكون هذه التحولات علةً لخيارات تعكس المصالح العميقة لشعوب المنطقة في الأمن والاستقرار في الحد الأدنى.

في وسط كل هذه السوداوية والخراب، يأتيك من يريد إلزامك في أحد بلدان العالم الثالث المنتهَكة بتعريف ماكس فيبر (1918) للدولة واحتكارها الاستعمال المشروع للعنف على حساب المقاومة وسلاحها، في وقت تصف فيه «إسرائيل» جيشها بأنه أصبح جيشاً من «البجع الأسود». يذهب خصوم المقاومة للاحتجاج في كثير من الأحيان بأن طبيعة أو شكل دور المقاومة ووجودها وسياساتها غير مشروعة لكونها غير مألوفة، إلا أنه في الواقع قد تكون هذه ميزتها الضرورية في حقبة اللانظام والشرور والمخاطر اللامتوقعة. باختصار، علينا إنجاز «فروضنا المنزلية» على التمام، إذ ستكثر «الاختبارات المفاجئة».

* باحث لبناني